

صورة المتلقي المثالي عند عبد القاهر الجرجاني

## The Image of the Ideal Recipient according to Abd al-Qaher al-Jorjani

\* نابت علي مهانه

NAIT ALI Mehana

جامعة محمد البشير الإبراهيمي - برج بوعريريج / الجزائر

University Mohamed Al Bachir Al Ibrahimi - Bordj Bou Arreridj -  
Algeria

mehana.naitali@univ-bba.dz

تاريخ النشر: 2021/03/30	تاريخ القبول: 2020/12/03	تاريخ الإرسال: 2020/11/04
-------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص البحث

تناولت هذه الورقة نوعية المتلقي المثالي من خلال مؤلفات البلاغي عبد القاهر الجرجاني، إما في ضوء التحليلات النقدية التي قدمها، أو من خلال التنظيرات المعروضة عنده عن آليات فعل التلقي أو وسائله، أو من خلال أهدافه، مع التركيز على أثر الخلفية المعرفية والعقدية الأشعرية التي استند عليها، منطلقا في الدراسة من إشكالية هي: ما نوعية أو صورة القارئ المثالي في مؤلفات عبد القاهر الجرجاني؟ لتتوصل في الأخير إلى متلقي صاحب مواصفات رفيعة وقيمة، إما ذوقيا أو معرفيا، أجملناه في مفهوم المتلقي المجتهد.

الكلمات المفتاح: متلقي، مثالي، قراءة، شروط، بلاغة .

### Abstract :

This paper deals with the quality of the ideal recipient through the writings of the rhetoric specialist Abd al-Qaher al-Jorjani, either in light of the critical analyses he presented through the theorizing presented to him on the mechanisms or means of the act of receiving, or through his objectives, with a focus on the impact of the cognitive and complex Ash'ari background upon which he depended, starting the study from the following problematic: What is the quality or image of the ideal reader in the writings of Abd al-Qaher al-Jorjani? In the end, the aim is to reach a recipient with high and valuable characteristics either in taste or knowledge, which we have outlined in the concept of the hard-working recipient.

**Keywords:** Recipient, Ideal, Reading, Terms, Rhetoric.

\*نابت علي مهانه mehana.naitali@univ-bba.dz



تمهيد :

تمثل قراءة التراث حوارا بين نسقين معرفيين مختلفين ضمينا، يتطلب لفهم هذا الحوار فهم سيرورة القراءة المعاصرة للتراث وفهم الأطر العامة التي تحوي هذا الحدث القرائي، ولكن قبل البدء في عرض أبعاد هذه القراءة لا بد من التنويه إلى نوع القراءة التي يستهدفها هذا المقال حيث أن هناك نوعين من القراءة النقدية للتراث، " أولهما المستوى النظري الذي تنصرف معه دلالة العبارة إلى وصف العمليات التصورية والآليات العقلية التي تقوم عليها عملية قراءة التراث، على نحو تغدو العبارة واصفة لأبعاد العلاقة التي تربط بين القارئ المعاصر بتراثه من حيث هي علاقة إدراكية تنطوي على مجموعة من المستويات وتتحرك عبر مجموعة من الوسائط وتتشكل حسب جملة من النظم والأعراف مما يجعل العبارة قرينة مباحث تتصل بنظرية الهرمينوطيقا، أما النوع الثاني من القراءة فهي للمستوى التطبيقي الذي تنصرف معه دلالة عبارة قراءة التراث إلى تقديم قراءة أو قراءات تطبيقية لجانب أو أكثر من جوانب التراث النقدي، موضوعا أو فكرة أو إشكالية أو شخصية أو كتابا. "<sup>1</sup>

يستهدف هذا المقال إذن النوع الثاني من القراءات من خلال توظيف نتائج النوع الأول ، أي محاولة توظيف القواعد المنهجية لقراءة ونقد النصوص النقدية التراثية للكشف عن طريقة تعاملها مع النصوص، ونوعية الفهوم التي انطلقت منها في نظرتها للدرس النقدي والبلاغي عامة وطرق تلقي النص الأدبي خاصة، بغية الكشف عن الآراء النظرية أو الآليات العقلية التي انطلقت منها القراءة التطبيقية لدى بعض النقاد القدامى، و هنا حديث عن نظرة البلاغي عبد القاهر الجرجاني إلى المتلقي المثالي كأمودج للتلقي الأدبي في التراث، و يعد مصطلح التلقي الأنسب لهذا الموضوع نظرا للخصوصية الحضارية للتلقي الأدبي عند العرب قديما، أين التلقي الشفاهي هو الغالب بين الأوساط الأدبية و النقدية، مما يجعل مصطلح القراءة أقل تحديدا للمفهوم المراد هنا.

### 1) الظروف الحضارية التي صاغت المفهوم:

تعد العلاقة بين صورة فعل التلقي وصورة المتلقي المثالي عند كل ناقد أو مُنظّر علاقة وطيدة جدا، لما لهذين المفهومين من ارتباط في أي ممارسة نقدية و نظرية أدبية قديما و حديثا،

" فإلسألة ليست ما يفعله القراء الحقيقيون بل هي مسألة ما يتعين على قارئ مثالي أن يعرفه ضمنيا، وأن يقرأ الأعمال ويؤولها بطرائق نعددها مقبولة طبقا لمؤسسة الأدب"<sup>2</sup>، أو ما يسمى بأهل الذوق والمعرفة وأهل العلم بالشعر في القديم، وهذا الطرح أو المنظور لا نجدده عند القدامى فقط، بل نجدده في أكثر النظريات ليبرالية وحادثة كما عند إيزر ونظريته عن فعل التلقي، ولهذا نجد تيري إيجلتون يصرح فيقول: " تقوم نظرية التلقي عند إيزر على أساس إيدولوجيا إنسانية ليبرالية، على أساس اعتقاد بأننا أثناء القراءة يجب أن نكون مرنين ومنفتحي الذهن، مستعدين لأن نطرح معتقداتنا للتساؤل وتسمح لنا أن نتحول."<sup>3</sup>

إن الملاحظ في نظريات إيزر لإستراتيجية القراءة بكل مفاهيمها المقدمة، أنها تؤكد على صورة مقبولة لقارئ مثالي عنده وضعه نصب عينيه حين أقام النظرية كما يؤكد تيري إيجلتون، قارئ متحرر من محيطه وتاريخه، ينكب على القراءة من غير قيد أو شرط، مع تغييب الغاية النفعية لقراءته، وبالتالي لا حاجة لإقحام أي عنصر خارج النص، وذلك بسبب "النفور الليبرالي من الفكر النسقي عند إيزر يجهل وضع القارئ في التاريخ، فكل القراء لهم أوضاعهم الاجتماعية والتاريخية، وإيزر واع بالبعد الاجتماعي للقراءة، لكنه يختار أن يركز أساسا على جوانبها الجمالية فقط."<sup>4</sup>

هذا التركيز الذي نجدده في مفهوم القارئ المثالي عند إيزر نجدده كذلك عند النقاد القدامى ولكن بصورة أو منظور آخر، ولكن المؤكد أن المتلقي المثالي مفهوم تاريخي مرتبط بعصر أو ثقافة صاحبه مهما ادعى الموضوعية في طرحه، وللوصول إلى المفهوم الخاص بالمتلقي المثالي العابق تحت ركام النصوص التي ألفها الجرجاني، يجب الإنطلاق من الظروف التاريخية التي أسست لهذا الأفق القرائي الخاص، كمعطى فكري صنعته ظروف عاشتها الحضارة العربية الإسلامية آنذاك، وحينما نتحدث عن الحضارة فإننا نقصد كل مناحي الحياة العلمية و الفكرية التي وصلت إليها أي جماعة إنسانية "مما هو داخل تحت التفسير الجمعي والمتداول للقراء، فكل جمهور أو مجموعة قراء تستجيب إلى العمل الأدبي من خلال عدسات أفق توقعات تاريخية بعينها، أي مجموعة من القواعد والأعراف المتداولة بينهم "<sup>5</sup>، والتي على المتلقي تجاوزها إن أراد أن يقدم دلالات جديدة

لتفسيرات نصوص قديمة، مما يجعل جهده الاستكشافي تجاوزا للمعطى الثقافي المكرر عن النصوص المتداولة وتفسيراتها الجاهزة، وذلك بخلق مداخل جديدة نحو جوهر النص والتي صورتها وقدمتها الجرجاني مجازيا بالغوص وتسلق الجبال أو حفر الأتربة كجهد فكري لا يتوقف عند الآليات القرائية المتوارثة، بل يخلق آليات جديدة من أجل معاني جديدة كذلك، ولكن دون إقصائها (الأعراف القرائية) أو الخروج عنها تماما، فذلك يعتبر سقوطا حرا نحو التفسيرات الباطنية والدلالات العدمية التي لا تقف على أي أرضية ثقافية مشتركة مع الماضي، "فنحن إذ نقرأ لا نستطيع أن نتجنب المفاهيم والثوابت في ثقافتنا، ولكننا يمكن أن نحاول داخل هذا النطاق التاريخي الخروج بفهم، يمكن في النهاية أن يلقي ضوءا جديدا على نص قديم".<sup>6</sup>

يمكن الوقوف في كل عصر عند نوعين من المتلقين، متلقي عادي ومتلقي خبير، أما المتلقي العادي فهو الذي يستهلك النص دون أن يكون قادرا على إعادة إنتاجه أو إضافة أي لمسة فكرية أو دلالية عليه، فهو يتعامل من النص تعاملًا انفعاليا نفسيا، إما بالقبول أو الرفض، سطحي النظرة، فاقد للخبرة خال من الذوق الفني، يقف عند المستوى اللغوي للكلمات، أما المتلقي الخبير فهو المتلقي المنتج الذي يتفاعل مع النص فيتأثر ويؤثر لينتج نصا جديدا على النص الأول، نصا مفعما بالمعاني والتأويلات الجديدة يتلمس مكامن الجمال فيتذوقها ثم يعللها استنادا على ذائقة فنية مصقولة بالخبرة والتجارب القرائية السابقة وزاد معرفي معتبر في علوم العربية، كما يشير إلى ذلك ستانلي فيتش في متلقيه المثالي، " فنوع القارئ الذي يهدف إليه ستانلي فيتش مثلا هو القارئ الفائق، الذي يمتلك إتقاننا ناضجا للغة، و يكون قادرا أيضا على التعامل مع القواعد النقدية، مع القدرة على اتخاذ القرارات والأحكام المناسبة حول جمالية النص ودلالاته أثناء قراءته النقدية".<sup>7</sup>

هذا الذي وعاه الجرجاني كمتلقي قبل أن يكون بلاغيا فذا أو ناقدًا خبيرًا، حيث استطاع بعقله أن يقف على معاناة المتلقي المثالي عنده، وهو يواجه المؤسسة النقدية بكل وسائلها الثقافية وسلطتها الفكرية محاولا أن يتجاوزها نحو آفاق جديدة من التفكير النقدي والبلاغي دون أن يتجاوز كل أبعادها الثقافية في شبه قطيعة معرفية، حيث يقول: " ولم أنل منذ خدمت العلم، أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة، وفي بيان المغزى من هذه العبارات وتفسير المراد

لها، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء والإشارة في خفاء، ويعطيه كالتنبه على مكان الخبيء ليطلب، و موضع الدفين ليبحث عنه فيُخرج، وكما يفتح لك الطريق إلى الطريق لتسلكه.<sup>8</sup>

يشير الجرجاني في موضع آخر من الكتاب إلى الحالة التي آل إليها القراء بسبب النقاد الذين أهملوا الاجتهاد والتجديد واتبعوا التكرار والتقليد في سبيل إبقاء أركان المؤسسة النقدية سليمة ولو على حساب النص والمعنى، فيقول: " فهو أننا لم نر العقلاء قد رضوا من أنفسهم في شيء من العلوم أن يحفظوا كلاما للأولين ويتدارسوه ويكلم به بعضهم بعضا من غير أن يعرفوا له معنى، ويقفوا منه على غرض صحيح، ويكون عندهم أن يسألوا عنه بيان له وتفسير إلا علم الفصاحة فإنك ترى طبقات من الناس يتداولون فيما بينهم ألفاظا للقدمات وعبارات من غير أن يعرفوا لها معنى أصلا، أو يستطيعوا أن يسألوا عنها أن يذكروا لها تفسيراً يصح." <sup>9</sup> ليقدّم بعد هذا المقطع جملة من الأحكام البلاغية أو النقدية الجاهزة\* المكرورة دون أي تمحيص أو نظر، إنما هو العادة فقط ليختتم عبارته بقوله: "ثم لا يخطر ببالهم أنه يجب أن يطلب لما قالوه معنى وتعلم له فائدة ويجشم فيه فكر." <sup>10</sup>

إن الأزمة الفكرية التي لاحظها الجرجاني في قراء عصره (نقاد و بلاغيين) وهو يقارنهم بذلك المشروع الفكري الذي آمن به في متلقيه المثالي، هي أزمة عقل، فلا يرضى لنفسه عاقل أن يحفظ كلام الأوّلين ويتدارسه دون أي فهم أو تعقل، فالمتلقي الخبير لا يرضى لعقله أن يودع فيه تأويل لا يرضاه أو لم يشارك في صناعته أو نقله، إن لم يكن شريكا في اكتشافه واستخراجه، فالوصاية على العقل مرفوضة عنده، إمّا بدعوى العادة أو الثقافة، أو حتى بسبب أهل العلم بالشعر، لأن المتلقي المجتهد هو من يبحث عن تعليل للدلالة المتوارثة، ليزنح بعقله وفهمه ويجد لها مستساغا عقليا أو دليلا واضحا يمكن الأخذ به، وسبب ذلك كما يقول: " قصر الهمة وضعف العناية وترك النظر والأنس بالتقليد، وما يعني وضوح الدلالة مع من لا ينظر فيها، وإن الصبح ليما للأفق ثم لا يراه النائم ومن قد أطبق جفنه." <sup>11</sup>

إن إطباق الأجفان هنا كإغلاق العقول والأفهام هناك، فإن نور الدليل مهما كان ساطعا ظاهرا إن وجد أمامه عقلا منغلقا وهمّة قاصرة لن يرى فيها المرء طرف خيط من نور، كيف لا؟ وقد رضي لنفسه بالوصاية الفكرية، وقبع في التكرير والاستعادة، " وظهر أنهم لم يأتوا الأمر من بابه ولم يطلبوه من معدنه ولم يسلكوا إليه طريقه." <sup>12</sup> فلا هم إلى الدلالة وصلوا ولا إلى المعرفة

قصدوا، لأن المعرفة أولا اجتهاد ونظر وليس تقليد وتكرير لما نُقِلَ عن الأولين، ولأن المعرفة تصنع بالبحث والتفتيش أبدا لاسيما وأن " المعنى لا يحصل لك إلا بعد انبعاث منك في طلبه واجتهاد في نيته"<sup>13</sup>.

إن المتلقي المثالي عند الجرجاني لا بد أن يجمع بين الخبرة المعرفية والذاتية الحساسة، مع قوة في الفكر ونشاط عقلي على النحو الذي يجعل من كل تجربة للتلقي مناسبة للاستكشاف والغوص في كوامن المعنى الخفي الغائر في تربة النص وبحر اللغة، " فالمتلقي عند الجرجاني ليس كائنا سلبيا تلقي على ذهنه النصوص فيقبلها ويستجيب لها دون إدراك واع لمقاصدها، وما وعاه يعد سبقا في نظرية القراءة والتلقي عند العرب وتقدما في تصور ما يمكن أن يكون عليه التفاعل بين النص والقارئ، بل إن إيراد لفظ اجتهاد يضع القارئ أمام عالم من الحرية الفكرية في فهم النص، فالتلقي اجتهاد وهذا يعني أن لا قراءة واحدة للنص ما دام القارئ مجتهدا، إذ قلما تتطابق الاجتهادات في تحليل النصوص وفهمها وهي لا تتطابق أصلا، لكن الاجتهاد ليس مطلقا إنما هو مقيد بمرجعية خاصة هي المرجعية اللغوية."<sup>14</sup>

إن الذي نراه من شروط نفسية وعقيلة أو ذاتية وموضوعية للمتلقي عند الجرجاني تجتمع وتقترب من شروط المجتهد بالمفهوم الشرعي أو الفقهي القديم، والأزمة الفقهية التي عاشها العالم الإسلامي بدايات القرن الخامس والتي أحس بها الجرجاني بعقله الديني الأشعري هي التي دفعته للتأكيد والدندنة على ضرورة الاجتهاد والنظر في النصوص، أكانت شرعية أم شرعية (خاصة باب الإعجاز القرآني) مما يجعلنا نستطيع الجمع بين المشروعين العظيمين الذين تناولهما، وهما البلاغة الشعرية والبلاغة القرآنية، من خلال مفهوم واحد أو مقصد موحد هو الاجتهاد في القراءة في كلا النصين (البشري/الرباني)، لذا كان التأسيس للمتلقي المجتهد هو إعادة تأسيس لمشروع حضاري راح ينجو وينطفئ آنذاك بسبب الجمود العقلي والتقليد باسم قداسة السلف و اكتمال المعرفة، "فرمما يكون الاجتهاد هو الفرض الغائب خاصة في تلك الفترة الحالكة من تاريخ أمتنا وبداية فترة انحطاطها، أين حورب العقل ومنع فيها الاجتهاد، فإن هذا المنع كان من عمل السياسة أكثر مما كان من عمل الدين وبواعث العقيدة والشريعة، فالواجب أنذاك تجديد الدين من داخله وإحياء مبدأ الاجتهاد الذي لا تحيا الشريعة إلا به سواء كان اجتهاد إنشائي، أم انتقائيا كليا أم جزئيا،

فرديا أم جماعيا، على ألا يكون في قطيعات الثبوت التي تجسد وحدة الأمة العقديّة والشعورية وهي قليلة للغاية." <sup>15</sup>

وبناء على حرية المجتهد في اجتهاده فإن الإسلام كفل له الضمانات اللازمة لحرية عقله وبناء رأيه على أسس سليمة وكفل له الاحترام والتقدير بناء على قوله صلى الله عليه وسلم: " من اجتهد فأخطأ له أجر ومن اجتهد فأصاب فله أجران." <sup>16</sup>

يقول ابن الجوزي وهو المحسوب على النصويين: " العقل لا يقر التقليد، ففي التقليد إبطال منفعة العقل، لأنه خلق للتأمل والتدبر، وقبيح بمن أعطى شمعة يستضيء بما أن يطفئها ويمشي في الظلام." <sup>17</sup> ، ويقول المزي: " لا تقلدني، ولا تقلد مالكا ولا الثوري، ولا الأوزاعي، وخذ من حيث أخذوا، ومن قلة فقه الرجل أن يقلد في دينه الرجل." <sup>18</sup>

إن هذه الدعوات الصريحة الواضحة من علماء أفاض في تلك الفترة الزاهرة من تاريخ الأمة، ليدرك بعمق حجم الخطأ الحضاري الذي وقعت فيما أجيال تالية بداية من القرن الخامس، أين توقف الاجتهاد وراحت الأمة بعوامها وخواصها تكرر وتجتزأ أقوال مالك أو قواعد الشافعي ونصوص أحمد بن حنبل، بإعلان مضمير مفاده أن العلم قد استوفى أركانه وبلغ منتهاه وكل من أتى بجديد فهو محدث مبتدع أو معتزلي يجب التحذير منه، على غرار ما فعل بالمعتزلة من تنكيل سياسي تحت التبرير الثقافي المقنن بالمصلحة وحفظ العقيدة والملة، فشنت الحروب الفكرية على كل ما هو معتزلي أو كلامي بداية، ثم إلى كل ما هو عقل واجتهاد نهاية، وفي خضم كل هذه الأوضاع عاش عبد القاهر الجرجاني في عصر يسمى عندنا ببداية عصر الإنحطاط محاولا في مشروعه الفكري إنقاذ الاجتهاد من زاوية التأسيس لفعل القراءة العقلانية القائمة على العقل والنظر، إما النص الشعري بجماله أو النص القرآني بجلاله.

## 2) مفهوم الاجتهاد لغة و اصطلاحا:

أ- الاجتهاد لغة: " الاجتهاد والتجاهد بذل الوسع والمجهود، وهو بذل الوسع في طلب الأمر، وهو افتعال من الجهد الطاقة، والمراد به رد القضية التي تعرض للحاكم من طريق القياس إلى الكتاب والسنة." <sup>19</sup>

ب- الاجتهاد اصطلاحا: " الاجتهاد بذل المجهود في طلب المقصود من جهة الاستدلال " <sup>20</sup>.

أو هو: " بذل المجتهد وسعه في طلب العلم بالأحكام الشرعية بطريق الاستنباط فيما ليس فيه دليل قاطع من نص أو إجماع إذ لا اجتهاد مع النص." <sup>21</sup>

وقيل: " استفراغ الفقيه الوسع لتحصيل ظن بحكم شرعي." <sup>22</sup>

وتجمع التعريفات اللغوية والاصطلاحية حول الاجتهاد على:

- كون الاجتهاد عمل فكري شاق يتطلب لانجازه جهدا أو طاقة للوصول إليه نافية بذلك كل قراءة عبثية أو عدمية.

- استفراغ الوسع في الاجتهاد تنفي كل تقصير أو إهمال أو كسل من هذا الفعل الفكري.

- كون الاجتهاد بطلب القصد يعني وجوب إثبات مقصدية فكرية أو واقعية لذلك الفعل، نافية بذلك كل دواعي الاجتهاد أو القراءة غير المؤسسة على غرض واقعي أو حاجة ماسة تفرضه.

- حصر الاجتهاد فيما ليس عليه دليل قطعي هو تأكيد على حدود الاجتهاد التي تقف عند النص القطعي الدلالة الذي لا شبهة فيه أو ظنية في ثبوته، وهو قليل جدا في كتاب الله أو السنة.

- كون الاجتهاد لا يصدر إلا من فقيه أو مجتهد والذي من شروطه: معرفة اللغة العربية، ومعرفة الكتاب العزيز، ومعرفة السنة النبوية، ومعرفة أصول الفقه ومواقع الإجماع، والعلم بمقاصد الشريعة، بالإضافة إلى شروط ذاتية وذلك بأن تكون له عقلية فقهية مع لطافة إدراك وصفاء ذهن ونفاذ بصيرة وحسن فهم وحدة ذكاء. <sup>23</sup>

بداية من الشروط أو الخصائص الذاتية السابقة الذكر راح الجرجاني يؤسس لمفهوم المتلقي المجتهد والقراءة الاجتهادية، بالإضافة إلى خصائص أخرى تؤكد في كل مرة على ضرورة فهم فعل التلقي كمنشاط معرفي يستحق الجهد والبذل والمعاناة في سبيل الوصول إلى حقيقة معنى النص، أو على الأقل الوصول إلى إشراك العقل والفكر في هذه العملية في سبيل إعادة التأسيس لفعل ثقافي جديد ومتجدد يرفض التقليد بحجة المؤسسة العلمية أو بتسلط المؤسسة السياسية القائمة.

### 3) خصائص المتلقي المجتهد:

أسند الجرجاني دورا مهما للمتلقي في العملية التواصلية، وذلك من خلال دعوته إياه إلى التأمل والتفكير في دلالات النص وأبعاده الجمالية انطلاقا من البحث الدؤوب عن تليل كل أثر نفسي أو معنى خفي يجده المتلقي في النص و ذلك "بالمحاولة و المزاولة و القياس و المباحثة والاستنباط و الاستنارة، بل كان من دونه حجاب يحتاج إلى خرقه بالنظر ، وعليه كيم يفترق إلى



شقه بالتفكير، وكان دار في قعر بحر لا بد له من تكلف الغوص عليه، وممتعا في شاطئ لا يناله إلا من يتجشم الصعود إليه، وكامنا كالنار في الزند لا يظهر حتى تقتدحه، ومشابكا لغيره كعروق الذهب التي لا تبدي صفتها بالهويناء، بل تنال بالحفر عنها وتعريق الجبين في طلب التمكن منها".<sup>24</sup>

إن المتأمل في النص السابق ليدرك المهمات الإستكشافية التي رسمها الجرجاني لمتلقيه المثالي في رحلة البحث عن المعنى بالدليل، من كشف الحجب الكثيفة التي تغطي المعنى والتي عليه خرقها بالنظر والتأمل والتدبر كما يقول، ثم عليه تشقيق الدلالات المدركة أو المفهومة من أجل استخراج بنية هذا المعنى المستخرج، وعدم الإكتفاء بامتلاكه أو معرفته بل لا بد من تحليله و تشقيقه وتمحيصه، ثم قدم جملة من التشبيهات التمثيلية لرحلة القارئ في النص بين المنحنى التنازلي إلى قاع النص لاكتشاف مكانه الدقيقة، أو بمنحنى تصاعدي نحو دلالاته الشاقة والبعيدة، أو بالحفر في مستوياته اللغوية والدلالية باحثا عن الأنساق الدالة فيه، والذي تتوارى خلف جبال من الأثرية التي صنعتها العادة أو التكرار، أو بفعل غفلة القراء السابقين عنها، مما جعلها رهينة التفسيرات المتوارثة أو التقليدية، أو التعليقات السطحية التي يؤمن بها قراء سطحيو المستوى أو قليلو المهمة، ممن يؤمنون بالمعنى الظاهر والنص البسيط على عكس قارئ عبد القاهر الجرجاني الذي لا يقف عند السطح أو الظاهر، إنما يؤمن دائما بوجود ذلك المعنى الجوهرى الغائر خلف المعاني الظاهرة، فهي " ضرب من المعاني كالجوهر في الصدف لا يبرز لك إلا أن تشقه عنه وكالعزير المحتجب لا يريك وجهه حتى تستأذن عليه، ثم ما كل فكر يهتدي إلى وجه الكشف كما اشتمل عليه، ولا كل خاطر يؤذن له في الوصول إليه، فما كل أحد يفلح في شق الصدفة، ويكون في ذلك من أهل المعرفة".<sup>25</sup>

يؤكد الجرجاني أن المتلقي الرفيع يحتاج إلى نص رفيع أيضا من أجل إبرازه وامتحان قدرته ليميز الغث من السمين، ولنعرف مراتب أهل المعرفة بالشعر ممن ادَّعوا لأنفسهم ذلك وهم في منأى عن تلك الصفة أو الخصلة، وميدان السبق في ذلك تلك النصوص ذات الدلالات العميقة والغامضة التي يحتاج متلقيها إلى شروط ذاتية خاصة ليصل إليها.

أ- الشروط الذاتية (الشخصية):

يقدم عبد القاهر الجرجاني جملة من الصفات الذاتية الواجب توفرها في المتلقي المجتهد وذلك في ثنايا كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، مما يقدم صورة عامة شبه مكتملة للتصور الذي رآه لهذا النوع من المتلقي ومن ذلك حرصه على أن يكون قارئه ذلك المتلقي الذي لا يعتر ولا يكمل على طلب المعنى باجتهاد منقطع النظير، فالمعنى " لا يحصل لك إلا بعد انبعاث منك في طلبه واجتهاد في نيله." <sup>26</sup> ولا يكون هذا للمتلقي الغافل الخامل، لكنه ذلك الذي ينشط بفكره ورويته في استنطاق النصوص، لأن الطرب والأريحية والهزة وغيرها من الأوصاف التي قدمها الجرجاني للأثر النفسي للقراءة لا تتوافر لكل نفس أو شخص، فهو مرتقى صعب لا يحوزه إلا صاحب همة واستعداد لذلك، لذا يجب " أن تنظر بقلبك و تستعين بفكرك وتعمل رويتك\* وتراجع عقلك و تستنجد في الجملة فهمك" <sup>27</sup>، والناس في هذا ليسوا سواسية وكذلك النصوص فإن فيها الغامض و الواضح، و الموعل في الإيحاء و الغث السقيم، و بعض المعاني هي " دقائق وأسرار طريق العلم بما الروية والفكر، ولطائف مستقاهما العقل، وخصائص معان ينفرد بها قوم قد هدوا إليها، ودلوا عليها، وكشف لهم عنها، ورفعت الحجب بينهم وبينها." <sup>28</sup>

إن العلاقة الوطيدة بين فعل الكتابة و القراءة واختلاف العمق الدلالي بين النصوص يحتاج إدراكها إلى قارئ متميز فذ لا يقف على السطح ليحكم على المعاني من مكان بعيد، بل يهتك الحجب ويعمق النظر ليصل إلى جوهر النصوص فيعرف قيمتها "فعلاقة النص بقارئه كعلاقة النص بصاحبه لتتحول بهذا كل من الكتابة والقراءة إلى وجهين لعمل واحد، إنها إبداع، وتبعاً لذلك فإن القراءة الحقة هي المنتجة القادرة على تشریح النص لأن القراءة تشرح وتقييم ينبغي أن تكون على التدبر والروية والخبرة والثقافة والذوق والدقة وما إلى ذلك من الأدوات التي تحقق لذة التلقي والبعد الجمالي لهذه العملية" <sup>29</sup>، دون إغفال البعد الفكري والعقلي الذي يبحث في الدلالات والمعاني، لذلك " ما شرفت صنعة ولا ذكر بالفضيلة عمل إلا أنهما يحتاجان من دقة الفكر ولطف النظر ونفاذ الخاطر إلى ما يحتاج إليه غيرهما." <sup>30</sup>

إن للعلاقة الجدلية بين النص الجيد والمتلقي المجتهد أبعاد دالة على حقيقة التكامل الحاصل بين تطور الإبداع مع تطور النقد، حيث تقف القراءة كمحفز ثقافي عند المبدع من أجل إبراز قدراته البلاغية والشعرية بعد جهد جهيد، ليجد بالمقابل جهداً آخر لا يقل شرفاً وتميزاً عند

القارئ الذي يغوص في المعاني بفكر متّقد وهمة عالية للوصول إلى البعد المعرفي والجمالي المبتوث في النص من طرف كاتبه.

" وقد أوجد النقد العربي طريقة ميسورة لاكتشاف قيمة النص، حيث ربط ربطا وثيقا بين صفات النص الأدبي وصفات القارئ، إذ إنّ طبقات القراء تختلف لاختلاف النصوص ولما كان النص الأدبي إما جزلا محكما منمقا، وإما مختلا فإن القراء تأثروا أيما تأثرا بذلك." <sup>31</sup>

إن العلاقة الواقعية بين نوع النص ونوع القارئ تمثل في الحقيقة علاقة شرطية من نوع خاص والتي يمكن اختصارها على الشكل التالي:

- النص الجيد لا يكشفه إلا قارئ مجتهد

- القارئ المجتهد لا يكشفه إلا النص الجيد.\*

لا يمكن اختبار قدرة المتلقي على النقد والتحليل إلا بالوقوف على نصوص ذات قيمة عالية وصنعة فنية فذة، مما يعطي نوعا من التكامل بين الطرفين " وهذه دعوة مستترة لتكون المعاني والنصوص على قدر من الثقافة والملاحظة، كما تحلّى بها هذا المتلقي واتصف بها، وهذه المعاني المستترة تحتاج إلى شفرة خاص لا يملكها إلا من كان عقله وفكره مكافئا أو مقاربا لتلك الصنعة التي أنتجت ذلك النص، وأودعت فيه تلك المعاني من أجل إنجاح عملية التواصل والتفاهم بين طرفين يمتلكان نفس القدرة الخطائية ونفس الشفرة اللغوية." <sup>32</sup>

"إن أهم ما يدعو إليه عبد القاهر الجرجاني هو أن يكون التشكيل داخل دائرة المعاني اللطيفة و هي دائرة تتطلب في الصياغة نوعا من الكثافة التي يتوقف عندها الفكر- فكر المتلقي- فينشغل بها انشغالا متوترا بمعنى محاولة الوصول إلى أبعادها من ناحية ثم مقاومتها من ناحية أخرى، فلا يتم الوصول إلى المعاني اللطيفة إلا بحركة عقلية وعاطفية موازية لحركة المبدع ذاته، فيتقدم القارئ الناقد ليأخذ موضعه في مواجهة النص ويتأخر عنه القارئ العادي." <sup>33</sup>

من هنا تتدخل الجوانب الذاتية للمتلقي لترسم مستوى حضوره بإزاء حضور النص، فكلما توفرت فيه صفات النباهة واللطفة، كان اجتهاده أكبر ومحصوله أروع، وبقدر الطلب يحصل المطلوب أبدا، وعلى هذا يتم التعامل مع قول النابغة: <sup>34</sup>

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خَلْتُ أَنَّ الْمُتَنَائِي عَنكَ وَاسِعٌ

فلكي يكشف الحجب عن مراد الشاعر منها يحتاج السامع إلى نوع من التلطف في التعامل أي أنها تستدعي الوقوف عندها والانشغال بدقائقها، وليس كل واحد بقادر على الاهتمام إلى ذلك، ولا كل خاطر يصل إلى عملية الكشف، وإنما ذلك خاص بأهل المعرفة المجتهدين للوصول إليها.

أما جمهور القراء فإنهم أبعد ما يكونوا عن الصورة المثالية للمتلقي المجتهد التي دعا إليها الجرجاني، وهذا الذي صرّح به حين قال: "وأشبه ذلك من المعاني مما ينال بعد مكابدة الحاجة إليه وتقدم المطالبة من النفس به...، وهذا خلاف ما عليه الناس، ألا تراهم قالوا: إن خير الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك، والجواب أي لم أرد هذا." <sup>35</sup>

لم يكن الجرجاني من دعاة الترف الفكري في القراءة ولا من دعاة الوضوح الدلالي في الكتابة، إنما كان ممن يرى وجوب رفع مستوى كلا الطرفين كاتباً وقارئاً من أجل الوصول إلى قدر من الممارسة الإبداعية والنقدية الراقية التي تنم عن الذكاء والفتنة، وعن النشاط والهمة ونبد الكسل والخمول " فيكون ثاقب الفهم جيد النظر مستعد لتمييز الحق من الباطل فيما يرد عليه، بعيد عن الغفلة التي كالموت، ويذهبون به في وجه آخر وهو أنه حرك نافذ في الأمور غير بطيء النهوض، وأن هذه الأوصاف من أمارات الصحة واعتدال المزاج." <sup>36</sup>

إن القدرات الذاتية التي قدمها الجرجاني لمتلقيه المجتهد، تنم عن كمال فريد عزيز على كثير من البشر، من قبيل استعدادات ذهنية كالفهم الثاقب، والنظر الجيد، والبعد عن الغفلة، والقدرة على التمييز العقلي، وصفات نفسية كالهمة والشغف واعتدال المزاج، مما يكسب صاحبها نوعاً من التميز في صفاته وأفعاله، لأنه بإزاء التعامل مع "أمور تدرك بالفكر اللطيفة ودقائق يوصل إليها بتناقب الفهم، فليس درك صواب درك فيما نحن فيه حتى يشرف موضعه ويصعب الوصول إليه، وكذلك لا يكون ترك خطأ تركاً حتى يحتاج في التحفظ منه إلى لطف نظر وفضل روية، وقوة ذهن، وشدة تيقظ." <sup>37</sup>

ومما أورده عبد القاهر الجرجاني عن المتلقي السلي ما يلي: "ويؤتى بأمثلة إذا حقق النظر كالأشياء يجمعها الإسم الأعم وينفرد كل منها بخصوصية، من لم يقف عليها كان قصير الهمة في طلب الحقائق، ضعيف المنة في البحث عن الدقائق، قليل التوق إلى معرفة اللطائف، يرضى بالجميل والظواهر، ويرى أن لا يطيل سفر الخاطر ولعمري إن ذلك أروح للنفس، وأقل للشغل، إلا

أن من طلب الراحة ما يعقب تعباً، ومن اختبار ما تقل معه الكلفة ما يقضي إلى أشد الكلفة".<sup>38</sup>

يشير عبد القاهر الجرجاني في النص السابق إلى بعض الصفات النفسية التي تمثل شخصية المتلقي السليبي عنده، والتي منها:

في طلب المعاني العميقة

قصير الهمة  
ضعيف المنة  
قليل التوق  
سطحي  
لا يطيل التفكير

وكل هذه الصفات النفسية داخلية في مسمى الشخصية الكسولة المتهاونة، والتي تنعكس على نوعية تلقيها أو قراءتها فتتهاون تبعاً لنفسيته في تعميق النظر والتأويل وتحصيل المعاني الدقيقة من النصوص، لأن نوعية التلقي انعكاس لنوعية الشخصية كما يصرح بذلك عبد القاهر الجرجاني آنفاً.

إن هذه الثنائيات الضدية التي قدمها الجرجاني عن الفرق بين نوعية المتلقي ونوعية النص المناسب له لتكشف عن الخصائص الواجب توفرها عند الكاتب و المتلقي على حد سواء، والتي لا تستطيع تقييمها أو الكشف عنها إلا تجربة فعل القراءة، فالأمور اللطيفة تحتاج إلى فكر لطيف، والأمور الدقيقة تحتاج كذلك إلى فهم دقيق، بالإضافة إلى القدرة على التمييز بين مواضع الصحة والخطأ التي لا يمكن كشفها أو الوقوف على حقيقتها إلا بالروية وقوة الذهن والتيقظ التي يمتلكها المتلقي المجتهد الشغوف بالوصول إلى عمق النص وحقائق الدلالات لما فيه من أمور مذكورة آنفاً، بالإضافة إلى صفات نفسية أقرب إلى الخصائص الروحية التي ترتبط بالفطرة والموهبة من قبيل ما وصفه الجرجاني حين قال: " كالأشياء يجمعها الإسم الأعم، وينفرد كل منها بخاصة، من لم يقف عليها كان قصير الهمة في طلب الحقائق ضعيف المنة\* في البحث عن الدقائق قليل التوق\* إلى معرفة اللطائف، يرضى بالجمل والظواهر ويرى أن لا يطيل سفر الخاطر\* ولعمري إن

ذلك أروح للنفس وأقل للشغل، إلا أن من طلب الراحة ما يعقب تعباً، ومن اختيار ما تقل معه الكلفة ما يفضي إلى أشد الكلفة." <sup>39</sup>

يبين الجرجاني في كلامه السابق خصائص أخرى للمتلقى المجتهد، مما يدخل في الجوانب النفسية الواجب توفرها عنده، إذ لا تكفي القدرات الذهنية بل لابد له من علو الهمة في طلب الحقائق وقوة المنة، والتوق نحو المعرفة وعدم الرضا بالظواهر والمظاهر، إنما بالبوطن والجواهر، وذلك بإطالة التفكير لينهي كلامه بإشارة مستترة إلى أساس الاجتهاد وهو تمام العقل، فالعقل لا يرضى لنفسه الراحة المفضية إلى الشقاء، فمن تمام آلة العقل التحسب للعواقب وتفضيل اللذة الآجلة الدائمة على العاجلة الزائلة، مما يجعل تمام العقل رأس الأمر في كل ما ذكر سابقاً.

ويضيف في موضع آخر مبيناً ومؤكداً عمّا جاء سابقاً، فيقول: " قد بان الآن وأتضح لمن رأى نظر المثبت الحصيف الراغب في اقتداح زناد العقل، والازدياد من الفضل، ومن شأنه التوق إلى أن يعرف الأشياء على حقائقها، ويتغلغل إلى دقائقها، ويرياً نفسه عن مرتبة المقلد الذي يجري مجرى الظاهر، ولا يعدو الذي يقع في أول الخاطر، أن الذي قلت في شأن الحذف وتفخيم أمره والتنويه بذكره، وأن مأخذه يشبه السحر ويبهر الفكر." <sup>40</sup>

إن المتمعن في كلام الرجل ليدرك مدى حرصه على التأكيد على جملة من الخصائص التي على المتلقي التحلي بها وجملة من خصائص أخرى عليه التخلي عنها إن أراد لنفسه المعالي، ولفعله (القراءة) الوصول إلى الخيء الغالي كالصدف في عمق البحر بالغوص والتفتيش، ولا يكون ذلك إلا بإعمال الفكر والعقل، و الرغبة الشديدة في تحصيل أكبر الفوائد من النص وأجمل متعة من التلذذ به، مما يشبه السحر في فعله والدهشة من أمره، ولا يتحقق ذلك للمقلد الذي يقف على مشارف الظاهر وأول الخاطر بنوع من التداعي الحر اللاشعوري للمعاني، أو كطريق الحدس الذي يأخذ بأول ما يجيء في الذهن دون تمحيص أو تأمل، إن هو إلا الإنفعال والتسرع لأن ذلك لا يقود إلى جديد معرفة أو حسن تصور أو قوة إدراك ووعي، بل يقف عند حدود الإعجاب الغفل الذي لا يجد له علة أو مبرراً. <sup>41</sup>

#### ب- الشروط الموضوعية (العلمية):

بعد أن قدّم الجرجاني جملة من الخصائص الذاتية لمتلقيه المثالي، راح يشترط لفعله القرائي جملة من الشروط المكتسبة الواجب توفرها فيه، مما يدخل في باب "الآلة" أو الوسيلة القرائية التي

تسمح لاجتهاده أن يتأسس على قاعدة علمية صلبة تخرج محصلة قراءته من المستوى الذاتي أو الفردي إلى المستوى الموضوعي ، ومما يعطي لتأويلاته وأحكامه صبغة معرفية تستطيع أن تكون مرجعا لنفسه أو لغيره من القراء المجتهدين أو للقراء العاديين، وفي هذا يقول: " فلست تملك إذا من أمرك شيئا حتى تظفر بمن له طبع إذا قدحتته وري، وقلب إذا أريته رأى فأما وصاحبك من لا يرى ما تريه، ولا يهتدي الذي تهديه، فأنت رام معه في غير مرمى معني نفسك في غير جدوى، وكما لا تقيم الشعر في نفس من لا ذوق له، كذلك لا تفهم هذا الشأن من لم يؤت الآلة." <sup>42</sup>

يؤكد الجرجاني في معرض كلامه السابق على شروط هامة وواجبة عند كل متلق مجتهد لكي يكون حكمه سليما وتخريجه مقبولا وقد جمعها في مفهوم الآلة، وقد قسمها إلى نوعين رئيسيين وهما: الذوق والمعرفة، حيث يقول: " واعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعا من السامع ولا يجد لديه قبولا حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة، وحتى يكون ممن تحدّثه نفسه بأن لا يومئ إليه من الحسن واللفظ أصلا وحتى يختلف الحال عليه عند تأمل الكلام." <sup>43</sup>

لقد وضع الجرجاني شرطين أساسيين لقارئه أحدهما فطري أولي وهو سليقة الذوق ، والثاني مكتسب بعدي وهي المعرفة\* ، ولكن لن يكون لكل شرط فعله أو أثره إلا بمساعدة الشرط الآخر، فلا ذوق بلا معرفة ولا معرفة دون ذوق، في حالة من التكامل من أجل بلوغ المراد من الكلام ومعرفة مواطن الحسن والجمال.

" يدلنا كلام الجرجاني أن النقد يعتمد على أساسيين هما: الاستعداد الموهوب والثقافة المكتسبة من أساليب العرب ومخالطة كلامهم وبعبارة أخرى يعتمد على ذوق مثقف، يستطيع من خلالها القارئ النظر إلى الجمال نظرة موضوعية ليعرف لجمال الجميل ولحسن الحسن أصلا." <sup>44</sup>

يمثل فعل القراءة عند الجرجاني بحث وكشف عن عناصر وعلاقات خفية تختبئ وراء النسيج اللغوي لذا يستلزم كشفها ورفع الحجب عنها متلقيا موهوبا يمتلك استعدادا فطريا وحاسة ذوقية رفيعة تستطيع الوقوف على أدق التفاصيل لتبينها، وتعرف مواطن الحسن والإساءة فتكشف عليها وهذا ما عناه بقوله: " لأن المزايا التي تحتاج أن تعلمهم مكانها وتصور لهم شأنها أمور خفية ومعان روحانية أنت لا تستطيع أن تنب السامع لها وتحدث له علما بما حتى يكون مهيبا لإدراكهما وتكون فيه طبع قابلة لها، ويكون له ذوق وقريحة يجد لهما في نفسه إحساسا بأن من شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض فيها المزية على الجملة، وممن إذا تفصح الكلام وتدبر

الشعر فرق بين موقع شيء منها وشيء، ومن إذا أنشدته أنق لها وأخذته الأريحية عندها، وعرف لطف الحذف والتنكير... وهذا قليل في الناس." <sup>45</sup>

"يتبين أن القارئ الحاذق عند الجرجاني هو الذي يتوغل في التفاصيل ويطلب النظر في الجمل حتى يظفر بمواقع الحسن ومكانن المزية بما أن الجمل تستوي فيها الأقدام، ونتبين كذلك أن التفضيل يعود إلى أن خصائص النص النوعية لا تبرز في الإجمال بقدر ما تكشف عنها اللطائف والدقائق، بهذا يخرج الجرجاني في مستوى التصور على الأقل من المتلقي المرتحل إلى المتلقي القائم على أصول وقواعد، ومن القراءة المبنية على الحدس والذوق إلى القراءة المبررة بالحجة والدليل." <sup>46</sup>

لا تكون للأحكام حجة ودليل إلا إذا أطمع ولقّن الذوق السليم أصنافا من العلوم والمعارف، فيصير الذوق مثقفا إذ لا اجتهاد بغير علم يدعمه ولا دليل عقلي يقويه ويسنده، وهذا الذي أكده الجرجاني حين قال: " وإذا كانت العلوم التي لها أصول معروفة، وقوانين مضبوطة قد اشترك الناس في العلم بها واففقوا على أن البناء عليها، إذا أخطأ فيه المخطئ ثم أعجب برأيه لم يستطع رده عن هواه وصرفه عن الرأي الذي رآه، إلا بعد الجهد، وإلا بعد أن يكون حصيفا عاقلا ثبتا إذا نبه انتبه وإذا قيل إن عليك بقية من النظر وقف وأصغى، وخشي أن يكون قد غر فاحتاط باستماع ما يقال له وأنف من أن يلج من غير بينة ويستطيل بغير حجة، وكان من هذا وصفه يعز ويقل." <sup>47</sup>

يؤكد الجرجاني من خلال كلامه أهمية ودور المعرفة والعلم في مجال التلقي والاجتهاد، نظرا للأخطاء التي يمكن الوقوع فيها دون معرفة وثقافة وبغير ذوق وسليم، ومن تلك النتائج الخطيرة:

**1-** تمثل العلوم والمعارف الخاصة بتلقي الشعر ونقده قوانين وأصول مشتركة تنجي صاحبها من الوقوع في التأويلات الفاسدة أو الأحكام الخاطئة التي لا سند قانوني لها ولا تبرير علمي حولها، مما يجنب الفوضى الحاصلة بين النقاد أو القراء الذين يحكمون على الأعمال الأدبية أو يؤولونها بغير وجه أو حجة، مما يجعل تأويلها فاسدا أو أحكامها باطلة، إذ إن الاجتهاد مؤسس أصلا على معرفة متفهمة عليها وقواعد يبنى عليها بعيدا عن تلك التهويلات الذوقية التي تطلق من أول بيت.



2- تمثل المعرفة كإبحا وسدا منيعا لكل تعصب للرأي أو إتباع لهوى النفس، مما لاحظته الجرجاني من اعتداد كل متلق أو قارئ برأيه حينما لا يوجد لهذا الرأي حجة أو دليل علمي عليه، وهذا التعصب من أهم العيوب الشخصية للقارئ المجتهد كونه يتنافى مع صفات التواضع العلمي، أو الموضوعية العلمية الواجب حضورها في كل جهد أو نشاط معرفي يبتغي الحقيقة ولو على حساب النفس وحفظ الذات، ولهذا يقول: " أحسن التأمل ودع عنك التجوز في الرأي" <sup>48</sup>، لأنّ التعصب والهوى يوقع صاحبه في أحكام غير معقولة، ويؤسس فعله القرائي على جرف هار، فالقراءة المجتهدة قائمة على معرفة لغوية وثقافة علمية تستطيع رد الحكم الذوقي إلى دليل لغوي أو علمي، ورد الحكم النقدي إلى مقروء شعري سابق يكون مبررا للرأي الذي ذهب إليه، أمّا وهذا عزيز في القراء، "فأوهكم الهوى والميل أن توجبوا لأحد النظمين المتساويين فضل على الآخر من غير أن يكون ذلك الفضل معقولا، فتبقى في أيديهم حسيرا لا تملك غير التعجب". <sup>49</sup>

3. يدل الشرط السابق في القارئ المجتهد وهو نفي التعصب للرأي والتأسيس على المعرفة والذوق، على صفة تابعة لهما مضمرة وهي العدالة أو العدل في الرأي واجتناب الظلم فيه، وهو شرط معروف بين الأصوليين في قولهم عن شروط الفقيه المجتهد والتي استثمرها الجرجاني في تصوره للقراءة بغية الدعوة إلى اجتناب الحيف والظلم في الرأي، وأساس العدل في القراءة قائم كما قلنا سابقا على مخالفة الهوى والميولات المبطنة، وإقامة الحكم على الدليل العلمي فلا يقطع إلا ببينة، ولا يفصل بلا حجة قاطعة، لأن ذلك ممّا يقدح في عدالته، ويزيل الطابع العلمي عن أحكامه وأذواقه، لأن التلقي والتأويل قضاء وفتوى كما يقول الجرجاني: "وهم لا يضعون أنفسهم موضع من يرى الرأي ويفتي ويقضي إلا وعندهم أنّهم ممن صفت قريحته وضح ذوقه وتمت أدواته" <sup>50</sup>. ومن شروط سلامة القراءة و التأويل اجتناب التعصب والظلم الفكري في حق الطرف الثاني في العملية التواصلية أي المؤلف.

4. يؤكد الجرجاني على مسألة جد مهمة في حديثه عن شرط صفاء القريحة وسلامة الذوق، وهي قضية حب الشعر والميل النفسي نحوه، من خلال كون هذا الشرط فرع عن أصل هو الذوق السليم، وهذه الخاصية النفسية الواقعة في متلقيه المجتهد، تستند إلى فروع هي الرواية والحفظ ومداومة الرياضة لتقوم عند ذلك المتلقي خصلة الميل العاطفي نحو النص الشعري، إذ لا يكون مجتهدا من طبعه بليد جاف لا يميل نحو النص الجميل والأساليب الراقية، لهذا يصرح: "ولمّا لمّ

تعرف هذه الطائفة هذه الدقائق وهذه الخواص واللطائف لم تتعرض لها ولم تطلبها، ثم عنَّ لها بسوء الاتفاق رأي صار حاجزا بينها وبين العلم به، وسدا دون أن تصل إليها، وهو أن ساء اعتقادها في الشعر الذي هو معدنها، وعليه المعول فيها، وفي علم الإعراب الذي هو لها كالناسب الذي ينهيهما إلى أصولها، ويبين فاضلها من مفضولها، فجعلت تظهر الزهد في كل واحد من النوعين".<sup>51</sup>

يمثل هذا الإعراض عن تعلم النحو وسماع الشعر أزمة فكرية أزلت العديد من اللغويين والنقاد، ممن عاش في فترة القرن الخامس وما بعدها، بعد الذي وقع للدرس النحوي من إطناب وتفريع للمفرد والخوض في العوامل والعلل، مما أثقل الدرس النحوي وسبب إعراضا عنه من طلبة العلم، وكذلك الشأن بالنسبة للزهد و الإعراض عن تلقي الشعر، وقد أشار إلى ذلك حازم القرطاجني في القرن السابع\* بعد أن تحول الشعر إلى زخرفة لفظية ولعبة بالكلمات، أو أداة لكسب العيش والتملق عند السلطان، فزهد الناس فيه مما أفسد الأذواق بين القراء، وهذا الذي نَبَّه إليه الجرجاني وحاول إصلاحه من خلال التأسيس لمتلق أو قارئ شغوف بالنحو ومقبل على الشعر ليقيم في نفسه ذائقة شعرية سليمة مُطعممة بالعلم والمعرفة تجعله قادرا على الإحساس بالمتعة الجمالية التي تنبهرها تلك النصوص، "لأنَّ قراءة الشعر تربي القدرة على الإحساس بجمال العبارة أو قبجها، كما أن دراسة النحو تعطي المفتاح لبحث العلاقات التركيبية حتى تضع اليد على موطن الجمال أو القبح".<sup>52</sup>

5. يؤكد الجرجاني في كل حين في مؤلفاته على ضرورة الإتيان في عملية التلقي، في نوع من النظرة المثالية نحو هذا النشاط الذي يعز على كثير من الناس، ولهذا الصفة أي إتقان العمل أصل في مذهبه الأشعري و يتمثل في أن شرط العلم الإتيان والإحكام فيه، وبما أن محصلة أو زبدة كل اجتهاد هو الوصول إلى علم ما، دل ذلك أنَّ التلقي أو القراءة في أي اجتهاد علمي شرطه الإتيان، وهذا شيخ الأشاعرة في زمان الجرجاني وهو الإمام عبد القاهر البغدادي يقول عن مذهبهم في العلم: "إن العلم صفة تصح بها من الحي القادر إحكام الفعل وإتقانه"<sup>53</sup>، ويقول مؤسس المذهب أبو الحسن الأشعري على لسان الإمام الشهرستاني عن رأي الأشاعرة في العلم: "ولا معنى للعالم حقيقة إلاَّ أنه ذو علم، ولا للقادر إلاَّ ذو قدرة، ولا للمريد إلاَّ ذو إرادة، فيحصل بالعلم الإحكام والإتيان".<sup>54</sup>

يمثل هذا الرأي عند الأشاعرة أصلا أصيلا في نظرية القراءة أو مفهوم المتلقي المثالي عند الجرجاني، إذ تقدّم تعليلا فكريا أو تأصيلا إيديولوجيا لما ذهب إليه من شروط صارمة لفعل القراءة أو التلقي، بداية من الذاتية إلى المعرفية المكتسبة، مما يحقق لذلك الفعل إتقاناً وإحكاماً صارمين يصحّ بهما تحويل نتائج تلك القراءة إلى مصاف العلم و المعرفة المتداولة والرأي الذي يعتد به في الساحة العلمية، وهذا الذي يؤكد موقفنا في كون المتلقي المثالي عنده إنما هو المجتهد المستوفي لشروط العلم، والمتحلي بميسم الذوق المثقف المدرب، "حيث يكون النحو عدته الأولى، والتذرع بالعقل، واعتماد الإقناع في قراءته رغم جنوحها إلى الجمالية الفنية عدته الأخرى، وربما فسّر مذهبه الأشعري تلك الإزدواجية فيه بين الصرامة العقلية والذوق الناقد الذي يتصيد لمعنى المعنى، وهي وسطية نشأت بين الاعتزال والسلفية"<sup>55</sup>، وهذا الذي يفرض قواعد و آليات أكثر صرامة وموضوعية، بالنظر إلى العلاقة التكاملية بين مفهوم القارئ المجتهد، وفعل القراءة كونها اجتهاد له شروطه وآليات وأهداف تجمعها إستراتيجية قرائية موحدة النظرة، على الرغم من عدم إيمان هؤلاء بوضع نظرية ما في القراءة والتلقي، ليبقى هذا المسعى التحدي الفكري لمجال نقد النقد في الخطاب العربي المعاصر.

#### خاتمة:

— يعود أصل مفهوم المتلقي المثالي عند عبد القاهر الجرجاني إلى الأزمة الفكرية التي لاحظها في قراء عصره (نقادا و بلاغيين) والتي هي وجه من أزمة العقل الإسلامي التي تعود بوادها إلى بداية القرن الخامس.

— يمثل المتلقي المجتهد مشروعا فكريا راح الجرجاني يؤصل له من خلال كتاباته، نظرا لما وصل إليه القراء من إهمال للاجتهاد والتجديد واتباع للتكرار والتقليد في سبيل إبقاء أركان المؤسسة النقدية.

— يقوم المتلقي المجتهد عند الجرجاني على الخبرة المعرفية والذائقة الحساسة.

— يمثل التلقي الأدبي عند الجرجاني اجتهادا فكريا شاقا يتطلب لانجازه لتحقيقه، و هو بعيد عن كل قراءة عبثية أو عدمية، بعيدا عن كل تقصير أو إهمال أو كسل من هذا الفعل الفكري، قائم على علوم ومعارف خاصة تنجي صاحبها من الوقوع في التأويلات الفاسدة و الأحكام المتعصبة.

- يحتاج المتلقي المجتهد شروطا ذاتية خاصة كلطافة الإدراك وصفاء ذهن، نفاذ بصيرة، حسن فهم، حدة ذكاء، فهم ثاقب، بعد عن الغفلة، وقدرة على التمييز العقلي، وصفات نفسية كالهمة والشغف واعتدال المزاج ونبد الكسل والخمول، و غير ذلك من الصفات المتميزة .

— يرسم الجرجاني جملة من المهمات الإستكشافية لمتلقيه المجتهد في رحلة بحثه عن المعنى بالدليل، من كشف الحجب الكثيفة التي تغطي المعنى والتي عليه خرقها بالنظر والتأمل والتدبر، ثم تشقيق الدلالات المدركة أو المفهومة من أجل استخراج بنية المعنى المستخرج، وعدم الإكتفاء بامتلاكه أو معرفته بل لا بد من تحليله و وتمحيصه للوصول إلى سر جماله .

— لم يكن الجرجاني من دعاة الترف الفكري في القراءة ولا من دعاة الوضوح الدلالي في الكتابة، إنما كان ممن يرى وجوب رفع مستوى كلا الطرفين كاتباً وقارئاً من أجل الوصول إلى قدر من الممارسة الإبداعية والنقدية الراقية.

— تخضع تجربة التلقي عند الجرجاني للنظام الثقافي ولا تُعد ثورة عليه، إنها إضافة للمزيد وليست إضافة للتديد والخرق، ولكن لم تكن هذه الوحدة الثقافية لتخرج عن سنة الاختلاف والتميز.

هوامش:

- <sup>1</sup> - جابر عصفور: قراءة التراث النقدي، مؤسسة عيال للدراسات و النشر (قبص)، ط1، 1991، ص 11.
- <sup>2</sup> - جين تومبكنز: نقد استجابة القارئ من الشكلائية إلى ما بعد البنيوية، تر: حسن ناظم، المجلس الأعلى للثقافة (القاهرة)، دط، 1999، ص 203-204.
- <sup>3</sup> - تيتري إيجلتون: مقدمة في نظرية الأدب، تر: أحمد حسان، الهيئة العامة لقصور الثقافة (القاهرة)، ط1، 1991، ص 101.
- <sup>4</sup> - المرجع السابق، ص 105.
- <sup>5</sup> - حسن البنا عز الدين: الشعر العربي القديم في ضوء نظرية التلقي والنظرية الشفوية، دار عين للدراسات والبحوث (القاهرة)، ط1، 2001، ص 09.
- <sup>6</sup> - المصدر السابق، الصفحة نفسها.
- <sup>7</sup> - Bennet: Lecteurs et lecture, Ed Andrew Longman Publishing, (New York), 1995; p 237

- <sup>8</sup>-عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط1، 1988، ص 34.
- <sup>9</sup>-المصدر السابق، ص 350.
- \* - يمثل موضوع السرقات النقدية ظاهرة فريدة في المؤلفات النقدية والبلاغية القديمة، حيث لا نجد شاهداً مذكوراً في كتب النقاد الأوائل إلا ونجد له ذكر عند المتأخرين دون أي إشارة فضل لسابق، ومن أكثر النقاد الذين أُخذَ عنه قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر والتي شغلت شواهد المختارة كل من جاء بعد من البلاغيين والنقاد.
- <sup>10</sup>-المصدر السابق، ص 350.
- <sup>11</sup>-المصدر السابق، ص 349.
- <sup>12</sup>-المصدر السابق، ص 348.
- <sup>13</sup>-عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط1، 1988، ص 133.
- <sup>14</sup>-محمد المبارك : استقبال النص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات و النشر (بيروت) ، ط1، 1999، ص37.
- <sup>15</sup>-محمد ممدوح: المجترآن على القرآن، دار روابط للنشر (القاهرة)، ط1، 2018، ص 57.
- <sup>16</sup>-رواه أبو يعلى في مسنده رقم 213/1. والإمام أحمد. ج2/130.
- <sup>17</sup>-ابن الجوزي: تلييس إبليس، دار الوفاء، (القاهرة)، ط1، 2002، ج1، ص 81.
- <sup>18</sup>-محمد مصطفى المراغي: الإجتهد، ص 89، ضمن كتاب: محمد ممدوح: المجترآن على القرآن، ص 61.
- <sup>19</sup>-ابن منظور: لسان العرب، تح: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي (بيروت)، ط3، 1999، ج02، ص 397.
- <sup>20</sup>-سميح دغيم: موسوعة مصطلحات علم الكلام ، مكتبة لبنان ناشرون (بيروت)، ط1، 1998، ج1، ص 15.
- <sup>21</sup>-خالد رمضان حسن: معجم أصول الفقه، دار الروضة (القاهرة)، دط، 1997، ص 21.
- <sup>22</sup>-محمد علي التهانوي: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ، تح: رفيق العجم وآخرون، مكتبة لبنان ناشرون، (بيروت)، ط1، 1996، ج1، ص 107.
- <sup>23</sup>-خالد رمضان حسن: معجم أصول الفقه، ص 21.
- <sup>24</sup>-عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 294-295.
- <sup>25</sup>-المصدر السابق، ص 141.
- <sup>26</sup>-المصدر السابق، ص 145.
- \* - الروية: أن تنظر ولا تعجل، ورؤى أنظر فيه وتعقبه وتفكر، [ابن منظور: لسان العرب. ج05. ص383].
- <sup>27</sup>-عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 64.
- <sup>28</sup>-المصدر السابق: ص 07.

- <sup>29</sup>-السعيد حضراوي: نظريات القراءة أو الوجه الآخر لجماليات التلقي قراءة في نقود الباقلاني و عبد القاهر الجرجاني، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة باتنة، (الجزائر)، مج 3، ع7، 2002، ص 78.
- <sup>30</sup>-عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص275.
- <sup>31</sup>-محمد المبارك: استقبال النص عند العرب، ص 182.
- <sup>32</sup>-ينظر: المرجع السابق، ص 38.
- <sup>33</sup>-محمد عبد المطلب: قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، مكتبة لبنان ناشرون (بيروت)، ط1، 1995، ص 241.
- <sup>34</sup>-ينظر: عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 119.
- <sup>35</sup>-المصدر السابق، ص 118.
- <sup>36</sup>-المصدر السابق، ص 58.
- <sup>37</sup>-عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 77.
- <sup>38</sup>- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 25.
- \* - المنة: بمعنى القوة، وخصها بعضهم بقوة القلب، ورجل متين أي ضعيف وعدّها ابن الأعرابي من الأضداد [ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج13، ص 200].
- \* - التوق: تؤوق النفس الى الشيء وهو نزاعها إليه، وتاقت نفسي إلى شيء، نزعت واشتاقت، والمتوق المشتهى. [ابن منظور: لسان العرب، ج02، ص 64].
- <sup>39</sup>-عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة. ص 28.
- <sup>40</sup>-عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص 171.
- <sup>41</sup>-ينظر: ربيع موازبي: الأسس الفكرية لنظرية التلقي في التراث العربي القديم، مجلة المعيار، المركز الجامعي تسمسليت، (الجزائر)، مج 6، ع 2، 2010، ص66.
- <sup>42</sup>-عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص 421-422.
- <sup>43</sup>-المصدر السابق، ص 225.
- \* - كان الجرجاني أسبق القدماء وأكثرهم مزجا بين الاستحسان والتعليل، فتوقف عند مستويات النص مستحسنا ومحلا ومعللا له، وهذا الموقف يكشف عن المتلقي العارف بمواطن الجمال وتحليلها. [سالم خدادة: النص وتحليلات التلقي، ص 45].
- <sup>44</sup>-أحمد بدوي: أسس النقد الأدبي، نخضة مصر (القاهرة)، ط1، 1996، ص89.
- <sup>45</sup>-المرجع السابق، ص 89.
- <sup>46</sup>-شكري المبخوت: جمالية الألفة، بيت الحكمة (تونس)، دط، 1993، ص 61-62.
- <sup>47</sup>-عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 432.

- 48- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 22.
- 49- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 423.
- 50- المصدر السابق، ص 322.
- 51- المصدر السابق، ص 06.
- \*- يقول حازم القرطاجني: "فانظر إلى تفاوت ما بين الحاليين: حال كان ينزل فيها منزلة أشرف العالم وأفضلهم (الشعراء) وحال صار ينزل فيها منزلة أخس العالم وأنقصهم، وإنما هان الشعر على الناس هذا الهون لعجمة ألسنتهم واختلال طباعهم فغابت عنهم أسرار الكلام (منهاج البلغاء و سراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجعة، دار الغرب الاسلامي (بيروت)، دط، 1986، ص 125).
- (52)- سيد حجاب: نظرية النظم وصلتها بقضية اللفظ والمعنى، مجلة كلية اللغة العربية، جامعة الملك سعود، (الرياض)، ع 09، 1979، ص 223.
- 53- عبد القاهر أبي منصور البغدادي: أصول الدين، مطبعة الدولة (اسطنبول، تركيا)، ط 1، 1928، ص 05.
- 54- أبو الفتح محمد الشهرستاني: الملل والنحل، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط 2، 1992، ص 81.
- 55- حبيب مونسى: القراءة والحدائث، مقارنة الكائن والممكن في القراءة العربية، منشورات اتحاد الكتاب العرب (دمشق)، دط، 2000، ص 33.